

اسم المادة : أدب ما قبل الإسلام

المرحلة: الأولى

مدرس المادة : أ.د. علي حسن جاسم

إيميل التدريسي : Ali.Aljanaby@tu.edu.iq

المحاضرة الأولى : الرثاء في الشعر الجاهلي

يعد الرثاء من الفنون التي وجد فيها الشعراء ميداناً رحباً في التعبير عن خلجات أنفسهم وعواطفهم ففيه لوعة صادقة وحسرات حرّة مرة ، لذلك فهو من الموضوعات القريبة إلى النفس فهو تعبير صادق ومباشر قلما تشوبه الصنعة أو التكلف كغيره من الأغراض الشعرية الأخرى .

وقد عُرف فن الرثاء منذ أقدم النماذج الشعرية الجاهلية حتى الشعر الحديث، مُخلفاً بذلك ثروة شعرية عظيمة على مرّ العصور التاريخية، وقد كان في نشوء هذا اللون الشعري مشاركات عديدة تنوّعت بين ندب الموتى، وتأبينهم.

تتفوّق النساء في هذا اللون الشعري على الرجال على الرغم من جود نماذج شعرية ذكورية غاية في العاطفة والألم ؛ وذلك لما تتصف به النساء من عاطفة أقوى، وقدرة أجراً من الرجال في تعبيرهم عن آرائهن في هذا المجال؛ إذ غالباً ما يفترن حزنهن بأعمال تدل على عظيم الأسى والفاجعة ، إذ يقمن بحلق شعورهن، ولطم خدودهن، والإقامة على القبور مدّة طويلة من الزمن. ومن يتنقّل بين طيّات الشعر يجد صوراً راقيةً من الرثاء فيها تحمل عميق المشاعر من الحزن والألم، واللوعة، والوحدة أحياناً، فقد بكى الشعراء أصدقاءهم، وأفراد عائلاتهم، ورثوا أنفسهم، والملوك والأمراء والفرسان، وغيرهم .

أنواع الرثاء

يُقسم شعر الرثاء إلى ثلاثة أنواع رئيسة، وهي على النحو الآتي:

النّـدب : ويعني بكاء الميت بالألفاظ الحزينة التي تذيب القلوب والعيون، يولول فيها الشاعر وينتحب ويسكب الدموع حزناً على ما فقد. وقد يتحوّل هذا النواح إلى مراسم ومآتم تدور مع الأعوام بذكرى سنويّة يقوم فيها الشاعر بإحياء خصال موتاه الذين فقدهم، فيبكيهم من جديد، ويندبهم، ويسكب لجلهم الدموع الكثيرة.

وضمّ النّـدب أنواعاً متعددة، فنذب الشاعر أهله وأقاربه، ويقال أول من ندب نفسه هو يزيد بن خذاق الشني، يذكره الثعالبي في (لباب أدبه) قائلاً: روى له أبو عبيدة قوله:

هل للفتى من بنات الدهر من واق * أم هل له من حمام الموت من راق

ومنها قوله الذي سار مثلاً:

هون عليك ولا تولع بإشفاق *** فإنما مالنا للوارث الباقي

يقول ابن داود الأصبهاني في (زهرة): ذكروا أن متم بن نويرة كان لا يمر بقبر،
ولا يذكر الموت بحضرته إلا قال: يا مالك ثم فاضت عبرته ففي ذلك يقول:
وقالوا : أتبكي كل قبر رأيته *** لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت لهم إن الأسى يبعث البكا *** ذروني ، فهذا كله قبر مالك
والحقيقة أن لقراءة الأخوة من أقرب القرابات وأمتنها، ولم يتوجع الإنسان العربي منذ
الجاهلية إلا ب (آخ)، ويمد همزتها مدأً، وتأمل عبيد بن الأبرص كيف عبر عن حاجته
إلى أخيه بقوله:
إني امرؤ في الناس ليس له أخ *** إما يسرُّ به ، وإما يغضب

ومن شعراء النذب نذكر الخنساء في رثاء أخيها صخر، والمهلhel بن ربيعة الذي
رثى أخاه كليب .
يقول كليب في رثاء أخيه :

أَهَاجَ قَذَاءَ عَيْنِي الإِذْكَارُ * هُدُوءًا فَالْدُّمُوعُ لَهَا انْجِدَارُ
وَصَارَ اللَّيْلُ مُشْتَمِلًا عَلَيْنَا * كَأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ لَهُ نَهَارُ
وَبْتُ أَرَأَيْتُ الْجَوَزَاءَ حَتَّى * تَقَارَبَ مِنْ أَوَائِلِهَا انْحِدَارُ
أَصْرَفُ مُقْلَتِي فِي إِثْرِ قَوْمِ * تَبَايَنَتِ الْبِلَادُ بِهِمْ فَغَارُوا
وَأَبْكِي وَ النجومُ مَطْلَعَاتُ * كَأَنَّ لَمْ تَحُوهَا عَنِي الْبَحَارُ
عَلَى مَنْ لَوْ تُعِيتَ وَكَانَ حَيًّا * لَقَادَ الْخَيْلَ يَحْجُبُهَا الْغُبَارُ
دَعَوْتُكَ يَا كَلِيبُ فَلَمْ تُجِبْنِي * وَ كَيْفَ يَجِيبُنِي الْبَلَدُ الْقِفَارُ
أَجِبْنِي يَا كَلِيبُ خَلَكَ ذُمَّ * ضَنِينَاتُ النُّفُوسِ لَهَا مَزَارُ
أَجِبْنِي يَا كَلِيبُ خَلَكَ ذُمَّ * لَقَدْ فَجَعْتُ بِفَارِسِهَا نَزَارُ

سَقَاكَ الْغَيْثُ إِنَّكَ كُنْتَ غَيْثًا * وَيُسْرًا حِينَ يُلْتَمَسُ الْيَسَارُ

أَبَتْ عَيْتَايَ بَعْدَكَ أَنْ تَكُفَّا * كَأَنَّ غَضَا الْقَتَادِ لَهَا شِفَارُ

ومما رثت به الخنساء أخاها صخرًا قولها :
يُورِّقُنِي التَّذَكُّرُ حِينَ أُمْسِي * فَأُصْبِحُ قَدْ بُلَيْتُ بِفَرْطِ نُكْسِ

على صَخْرٍ، وَأَيُّ فَتًى كَصَخْرٍ * لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَطِعَانِ حِلْسِ

وللخصمِ اللدِّ إذا تعدَّى * لِيَأْخُذَ حَقَّ مَظْلُومٍ بِقِنْسِ

فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ رِزَاءً لَجَنٍ * وَلَمْ أَرَ مِثْلَهُ رِزَاءً لِلْإِنْسِ

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا * وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي * عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

فَلَا وَاللَّهِ لَا أَنْسَاكَ حَتَّى * أَفَارِقَ مَهْجَتِي وَيَشُقَّ رَمْسِي

التأبين : يعني التأبين في بداية ظهوره كمصطلح بأنه الثناء على الشخص حيًّا أو ميتًا، ثم اقتصر في معناه على الميت، حيث كان من المتعارف عليه في الجاهلية الوقوف على قبر الميت وذكر خصاله الجيدة وأخلاقه الحميدة. ولم يقتصر التأبين على الرجال من الشعراء، بل قالت النساء في هذا الموضوع كما الرجال. وفي دراسة هذا النوع من الرثاء نشعر بأن الغرض من التأبين هو تصوير مدى الخسارة التي لحقت بعائلة الفقيد بعد خسارته، ويظهر هذا الأمر واضحاً في رثاء الخنساء لأخيها صخر. تعددت أسباب التأبين وبقي الهدف واحداً، فنظم

ومن أشهر الشعراء من نظموا الشعر في التأبين الخنساء وحسان بن ثابت، تقول الخنساء في رثاء أخيها صخرًا :

قَذَى بَعِينِكَ أُمٌّ بِالْعَيْنِ عَوَّارٌ * أُمٌّ ذَرَفَتْ أَدْخَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ

كَأَنَّ عَيْنِي لَذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرَتْ * فَيُضُّ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مَدْرَارُ

تَبْكِي لَصَخْرٍ هِيَ الْعَبْرَى وَقَدْ وَلَهَتْ * وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الثَّرْبِ
أَسْتَارُ

تَبْكِي خَنَاسٌ فَمَا تَنْفَكُ مَا عَمَرْتُ * لَهَا عَلَيْهِ رَنِينَ وَهِيَ مِفْتَارُ

تَبْكِي خَنَاسٌ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا * إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ أَنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ

لَا بَدَّ مِنْ مَيِّتَةٍ فِي صَرْفِهَا عِبْرٌ * وَالذَّهْرُ فِي صَرْفِهِ حَوْلٌ وَاطْوَارُ
وَإِنَّ صَخْرًا لَوَالَيْنَا وَسَيِّدُنَا * وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَارُ
وَإِنَّ صَخْرًا لِمِقْدَامٍ إِذَا رَكِبُوا * وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا جَاعُوا لَعَقَّارُ
وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمَّ الْهُدَاةُ بِهِ * كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ